العلاقة بين الفلسفة و النقد

عناصر المحاضرة:

1-في البدء كانت الفلسفة...

2-هوية النقد/ الناقد

3-هوية الفلسفة/ الفيلسوف

4-تعالق النقدي بالفلسفي :من الفلسفة إلى النظرية الأدبية إلى المنهج النقدي .

1-في البدء كانت الفلسفة :

تُعد الفلسفة أم العلوم كما هو معروف بحكم أنها تبحث في كل الظواهر الكونية و الإنسانية ، فهي تتساءل عن الوجود و الموجود و كيفيات الوجود و المصير و المآلات ، و من تم فهي تخوض في كل موضوعات العلوم الأخرى ، بل إنها الأصل الذي تفرعت عنه كل العلوم الاجتماعية و النفسية واللاهوتية و حتى العلوم التجريبية. فالفلسفة بوصفها " معرفة صادرة من العقل" (1)كما يذهب إلى ذلك إيمانويل كانط خاضت مغامرة السؤال تقرّبا من الوجود و حبا بمعرفة "المصنوعات" لتتم المعرفة بالصانع على أكمل وجه-كما نقرأ في إشارات الفيلسوف العربي ابن رشد- و هكذا توزع اهتمام أهل الفلسفة على القضايا الإنسانية و الوجودية ، و حينما تهافت مُحبّو المعرفة على البحث في علاّتها و سبل الإحاطة بها كانوا محاطين دائما "بحب الحكمة" يبتعدون قليلا ثم يعودون إلى حضن الفلسفة يتزودون بنورها الخفي ليواصلوا درب الاكتشافات العلمية و الفتوحات المعرفية ، و ظلت الفلسفة من جهة أخرى تلاحق كل المنجزات الفكرية تثمينا و تقويما ، فكلما زاغ العالم احتواه الفيلسوف، و كلما استراحت العلوم كلما حرّكت عجلتها الفلسفة دافعة إياها من فتح إلى آخر، "ففي كل

عَالِم عِلْمٍ يرقُد فيلسوف" (2)على حد تعبير ميشال فوكو. يهمّنا في هذا السياق التساؤل عن علاقة النقد الأدبي بالفلسفة و قبل الإحاطة بهذه العلاقة ، يجدر بنا أن نتناول هوية كل من الناقد الأدبي و الفيلسوف لنرصد بعد ذلك تعالق النقدي بالفلسفي.

2- هوية الناقد الأدبي: لعل المقولة القديمة" الناقد شاعر فشل" مقولة تنطوي على عنف رمزي نحو الناقد و تضعه في مرتبة أقل من مرتبة المبدع ، هي مرتبة التابع الذي يقتات على فتات السيد. لقد عملت الأنساق الخفية على مرْكزة دور المبدع و تهميش دور الناقد مكرسة مزاعم الشعراء بامتلاك السلطة المطلقة في الكلام البليغ الذي يعجز النقاد عن الإحاطة بأسراره، أولم يقل المتنبي- بنرجسية فائقة-: (أنام ملء جفوني عن شواردها و يسهر الخلق جراها و يختصم)؟(3) و كرر الشعراء من بعده عبر كل العصور عبارة " أنا لا أكتب القصيدة ، بل القصيدة تكتبني "(4) في إشارة خفية إلى امتلاك سر الكلمة البليغة ، و تيه النقاد في متاهات ذلك السر. و الواقع أن أمر النقد ليس هيّنا لهذه الدرجة، و عمل الناقد الأدبي ينطوي بدوره على إبداعية كبيرة ، و لهذا اجتهد النقاد -بدورهم- في الردّ على النظرة الدونية للناقد حينما شرحوا "هويته" واضعين المعايير و الشروط التي ينبغي توافرها في الناقد الأدبي (الذوق ، الثقافة ،تمرس الناقد بالنقد و خبرته ،ضمير الناقد) . فالناقد إنسان فنان في تكوينه النفسي،يمتلك بطبعه مزاجا شعريا

« Le vrai lecteur de la poésie est d'abord un poète » (5)

كما أن الناقد هو أولا مثقف موسوعي عابر للتخصصات ، و عمله لا يقتصر على إصدار الأحكام السريعة حول النصوص الإبداعية ، بل إنه يعيد -عبر محاورتها و التساؤل عنها- بناءها بناء ينتج عنه نص آخر، قد يحتاج بدوره إلى مقاربة نقدية فيما يعرف بنقد النقد، ثم إن الناقد الأدبي فضلا عن هذا يدرك تمام الإدراك مسؤوليته أمام الإبداع ، و هي مسؤولية تتجاوز الإعجاب إلى التموقع الفكري في قاطرة التاريخ ، تجسيدا لقيم إيديولوجية ، و ترسيخا لهواجس إنسانية يذهب إليها المبدعون في إبداعاتهم.

3-هوية الفيلسوف: تتميّز الفلسفة بكونها "فعلاً فكرياً تأملياً عقلياً شاملاً حول الوجود الطبيعي والإنساني و الماورائي، الوجود المحسوس والوجود المعقول، العالم المادي والعالم الروحي. يقوم هذا الفعل على الحس الإشكالي والتحليل المنطقي العميق، والنقد البنّاء من أجل الوصول إلى الحقائق الكليّة والعلل البعيدة للوجود بمختلف أصنافه"(6) ذلك أن الفيلسوف شخص مهووس بالتأمل و السؤال، فالوجود بالنسبة إليه نص ، لكن هذا النص لم يوجد لقراءة تتسلى و تعْبر ، بل هو نص إشكالي يفرض على الذات التساؤل بشأنه بشكل مستمر، و درب السؤال معبد دائما بالشك، و التفكير المنطقي، و التحليل والاستقصاء. بهذه الطريقة ينطوي عمل الفيلسوف على كثير من النقد ، نقد الراهن الحضاري و راهن المعرفة و أساليب الأجوبة التي تجتهد في تحقيقها باقي العلوم ، و في هذا الفضاء يلتقي الفيلسوف والناقد ، فكلاهما يتأمل النص/الوجود بعين القراءة التي لا "ترضى" و لأنها لا ترضى تحاول ترميم النقص عبر إعادة بناء الموضوع بناء ينشد الجمال و الكمال القيمي في عالم يفقد السيطرة على بوصلته باستمرار، ليس هذا فحسب بل إن الفيلسوف " عبر تشكيل الوعي يشكل أيضاً الوعي النقدي بالعالم وبالأفكار من أَجل الوصول إلى طرق الحقيقية و هدفه الاستنارة والتنوير، وتبديد الوهم الظلامي والتحرر من كل الأفكار التي تنال من حياة الإنسان، لأن هدفه الإنسان ومكانته في العالم، ولهذا فالفلسفة أساس تشكيل روح التسامح لدى أفراد المجتمع. إنها وهي تدافع عن الحق والخير والجمال تزود الإنسان بأجمل القيم الضرورية لحياته، وتخلق طقوس الحوار، بعيداً عن الصراعات القاتلة"(7).

4-تعالق النقدي بالفلسفي :من الفلسفة إلى النظرية الأدبية إلى المنهج النقدي .

يقول محمد غنيمي هلال في كتابه "النقد الأدبي الحديث" : " ولد النقد عند الفلاسفة و في أحضان الفلسفة و ارتبط بالفلسفة -عند اليونان- حتى صار فرعا من فروعها" (8) و لعل غنيمي هلال يلمح إلى ميلاد النقد الأدبي ، فاستقراء الجانب التاريخي لهذا الأخير يؤكد أنه ارتبط أولا بالفيلسوف اليوناني أفلاطون الذي صاغ نظرية المحاكاة و فسر في ضوئها عمل الأديب و خلص إلى رفض الشعر على اعتبار أنه محاكاة من الدرجة الثانية ، و هو لكونه كذلك يبتعد عن عالم المثل و يشوه الحقيقة مؤججا فقط العواطف السلبية ، و من هنا

طرد أفلاطون الشعراء من جمهوريته الفاضلة التي لا تتسع للأفعال اللّامجدية (9). إن الأحكام النقدية التي مارسها أفلاطون على العمل الأدبي نابعة من تصورات فلسفية مثالية تنشد مصيرا أفضل للإنسان بتطهير عالم الصيرورة و كبح جماح العاطفة و الخيال الفاسد. وسوف تتخذ المحاكاة عند أرسطو مفهوما آخر أكثر واقعية ، و يعاد النظر في "وظيفية" الشعر و "ضرورته" بالنسبة للحياة الإنسانية، و سوف يمتد هذا الأثر اليوناني إلى الثقافة العربية و يتلقفه الفلاسفة الإسلاميون و يعيدون تبْيئته ، فيتجاوز النقد الأدبي العربي الملاحظات البلاغية البسيطة التي كانت تميزه في الغالب إلى ممارسات أخرى محكومة بالتأثير الفلسفي ، و هو ما دفع إحسان عباس إلى القول " إن النقد الأدبي ولد في أحضان الاعتزال" (10) ظل الفلاسفة– منذ الزمن الفلسفي الأول– يحتوون الأدباء و النقاد ويوجهونهم بشكل مباشر أو غير مباشر، مع اختلاف في تقييم العملية الإبداعية ، و مع اختلاف أيضا في زاوية النظر إلى هذه العملية ، مما ولّد نظريات أدبية متلاحقة عبر العصور وجّهت بدورها التفكير النقدي عند العرب أو عند الغربيين توجّهات متباينة من مرحلة تاريخية إلى أخرى، حتى تولدت مناهج نقدية في عصور التنوير الأوروبي تعنى حينا بمؤلف النص ، و حينا آخر بالنص نفسه ، و حينا ثالثا بقارئ النص ، و في جميع هذه الأحيان كان النقد جزءا من فلسفة كاملة و انعكاسا لمذاهب فلسفية تحاول الإجابة عن إشكاليات الوجود الإنساني و مآزقه المتجددة ، فما من نظرية أدبية أو منهجية نقدية إلا وكانت وليدة تيار فلسفي بعينه، ولعل هذا ما سنفصل فيه في المحاضرات اللاحقة.